

تأثير الموشحات و الأزجال في شعر التروبادور بين الرفض و القبول.

أ.نميش أسماء - جامعة سيدي بلعباس

من المعروف أن مسألة تأثير الموشحات و الأزجال في شعر التروبادور، قد أسالت الكثير من الحبر، بحيث اختلفت المذاهب بين المستشرقين ، من مؤيد للتأثير العربي و معترف اعترافا، يقوم على أدلة، و شواهد علمية ملموسة، ومن معارض ومشكك يؤول بعض الفروض البعيدة عن الواقع، فقط لمجرد نفي التأثير العربي الإسلامي في الشعر الأوروبي.

وأول من تنبه إلى وجود تشابه، و تماثل في الشكل الخارجي، و تركيب الأبيات، و قواعد التقفية المتبعة بين الشعر الشعبي الأندلسي و فن التروبادور في العصور الوسطى هو جيا ماريا باريري ¹ barbieri giammarca، فقد نشر كتابا سنة 1571 بعنوان أصول القافية الشعرية dell'origine della posia rimata ¹، والذي يشرح فيه كيف تطور الشعر العربي في الأندلس، و انتقله إلى جنوب فرنسا، و جميع أنحاء أوروبا.

كما اعد المستشرق خليان ريبيرا ² بحوثا و دراسات معمقة، اهدت إلى نتائج تؤكد الصلة الواضحة بين شعر التروبادور، و الأدب الأندلسي، و وضوح تبعية الأول للموشحات، و الأزجال الأندلسية بصفة خاصة. ويظهر هذا التأثير في الشكل العروضي الخارجي، و في المضمون الداخلي، و في الوقائع التاريخية للأشخاص.

وشعراء التروبادور: هم شعراء متجولون، كانوا يتنقلون في شوارع المدن من مكان إلى آخر، عادة ما يكونون من طبقة النبلاء، وغالبا ما تدور أشعارهم حول الحب، الذي ينجي المرأة المحبوب، ويمجدها ويعلن لها الفارس التروبادوري من خلال شعره، استعدادا للموت من أجل الحصول على نظرة منها، أو لفنة .

فالشعر العاطفي للتروبادور، يتميز بعذريته، وعفته، التي تجعلنا نتذكر الغزل العفيف في الأدب العربي، كحب جميل بن معمر لبثينة.

و يجمع الكثير من الباحثين على أن أصل كلمة (التروبادور) يعود للكلمة: " طرب، أي تغنى، فهي عندهم تركيب من صفة، و موصوف، كان شائعا في الاصطلاح الموسيقي الأندلسي القائل: دور طرب، ثم وضعت الصفة قبل الموصوف كما هو الحال في اللغات الأوروبية فقيل : طرب دور أو trobador " ².

فإذن التروبادور : هم فرقة غنائية تدور في أرجاء أوروبا منشدة أشعارا غنائية، هذه الأشعار -من ناحية الشكل العروضي - قد اتخذت مظهر الموشحة و الزجل، ولكل مقطوعة ما لكل موشحة من الأفعال

¹ ينظر، عبد الإله ميسوم، تأثير الموشحات في التروبادور، الشركة الوطنية للتوزيع و النشر، 1981، ص 198.

² ينظر، احمد أمين، ظهر الإسلام، النهضة المصرية، القاهرة ج 3، ص 309.

والأغصان و القوافي ، على نحو لم يعهد من قبل في الشعر اللاتيني¹. وحتى الخرجة ، فقد أولوها شعراء التروبادور اهتماما كبيرا ، بنفس الاهتمام الذي أعطاه شعراء الأندلس للخرجة في الموشح. ويمكن أن نوضح ذلك بمثال عن زجل مدغليس :

الله طليب من يفتري على برى

يقول عني تاب فلان

وقد رجع خلاف ما كان

وأنا كما أطلقت العنان

إلى الجرى " ²

فهذا المقطع يتألف من مطلع مكون من شطرين ينتهي بنفس القافية ، و التي سنرمز لها بحرفي أ-أ. ويأتي بعده غصن مكون من ثلاثة أشطر ذات القافية الواحدة ، و التي سنرمز لها ب :ب-ب-ب.

ثم نختم المقطوعة بقفل ذي شطر واحد من نفس قافية المطلع ، ونرمز لها ب :أ

ويستمر مدغليس في نظم زجله بمقاطع ماثلة لهذا الشكل حتى ينهي زجله ، ماعدا المطلع ، فهو لا يتكرر وينهي الزجل بقفل يسمى الخرجة .

وهذا الشكل البسيط ، قد قلده شعراء التروبادور الأوائل ، و يتوضح لنا ذلك بمقارنة زجل مدغليس الذي ورد ذكره ، مع مقطوعة " ييري فيدال

Mos cars s'alegr'e s'estau

Per lo gentil temps suau

E pel gastel de fanjau

Que- M ressembla oaradis

ترجمتها:

إن قلبي سعيد فرحان

بالفصل الطيب الوديع

¹ - محمد رجب البيوني ، الأدب الأندلسي بين التأثير و التأثير ، مكتبة البار العربية للكتب ، ط1 ، 2008 ، ص 121 ، 122.

² - فوزي سعد عيسى ، الموشحات و الأرزجال الأندلسية في عصر الموحدين ، دار المعرفة الجامعية ، 1990 ، ص 155.

وبقصر فأنجو

الذي يبدو لي وكأنه الفردوس"¹

وهذه المقطوعة من شعر التروبادور من النمط ب-ب-ب-أ و هو: المعروف في فن الموشحات والأزجال.

ولم يقتصر شعراء التروبادور على محاكاة شعراء الأندلس في نظم الشعر في شكله الخارجي ، بل حاكوه أيضا في استعمال القافية، التي لم تكن معروفة في أوروبا من قبل ، وقد أشار إلى ذلك "المستشرق دي ساسي" في كتابه **بحث أولي في العروض عند العرب** إذ قال : العرب هم الذين نقلوا القافية إلى الشعر الأوروبي².

هذا من حيث الشكل العروضي ، أما من حيث المضمون الداخلي ، فنلمسه في صدق المشاعر الذي يكنه شاعر التروبادوري لمحبوبته ، فهو : يمجّد المرأة في شعره، و يسمو بقيمتها ، و يخضع لها ، و يحاول فعل المستحيل لإرضائها، و ان لم تكن تبادله نفس الشعور ، و حبه لها يمتاز بالعفة، و الطهارة ، و هذا النوع من الحب لم يكن معروفا في الأدب اللاتيني القديم ، و استحدثه كان ؟ يمثل ثورة فكرية في وجه الكنيسة ، فخاربه رجال الدين وعزموا على القضاء عليه بكل الطرق الممكنة ، ذلك لأنهم اعتبروه ديناً جديداً ، رفع به الشعراء المرأة الأوروبية من وضعها الرديء إلى مستوى راق ... وكانت الكنيسة لا تريد هذا التقديس والتبجيل للمرأة و اعتبرت ذلك خارجاً عن تعاليمها ... ولا حققت كل من تجرأ على القول في العفافة و نفت بعضهم ، وكان **خيوم مونتانياغول** أول من نفى إلى أراغون³.

إذن مع التروبادور ، تحول العشق في أوروبا خلال القرون الوسطى ، إلى إحساس جميل يسعد الشاعر ويتفاخر به ، بينما اعتبر قبل هذا الفن، آفة خطيرة يتحاشاها المجتمع الأوروبي المسيحي.

هذا النوع من الحب (العزل العفيف) استورده شعراء التروبادور من الأندلس، التي كانت زاخرة بقصائد العزل العفيف ، إضافة إلى تأثرهم بالكتب التي أفاضت في التكلم عن الحب العفيف ، ككتاب الزهر والحدائق ، و طوق الحمامة ... هذا الأخير هو: لابن حزم الأندلسي المتوفي سنة 1073 -⁴ يصور الحب الروحي ويسرد فيه صاحبه عددا كبيرا من حكايات الحب التي رآها في مجتمع الأندلس خلال القرن الحادي عشر ، وهذه المواضيع كلها نجدها في شعر التروبادور، مما يجعلنا نسلم بأن هذا الكتاب، كان له اثر بالغ في نشأة هذا الفن (التروبادور).

¹ - عبد الإله ميسوم ، تأثير الموشحات في التروبادور ، ص 175.

² - خالد بن محمد مبارك القاسمي، تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، مكتبة النافذة، ط 1، 2014 ، ص 164.

³ - محمد عباسية ، الموشحات و الأزجال الأندلسية و أثرها في شعر التروبادور ، دار أم الكتاب 2012، ص 286.

⁴ - ينظر ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة في الألفة و الألاف ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2010

ومن المواضيع التي تؤكد هذا التأثير ، ما يدعى في شعر التروبادور "بالgardador ، الذي يقابل في الشعر الغزلي الرقيب ، و لخيوم التاسع في هذا الموضوع مقطوعة خاصة يقول فيها:

quen die vos gardador e castei , en sera ben grans folia qui nom crei : gareu veiretz garda que al oros non somei.

وترجمتها:

إني أنصحكم أيها الرقاء و أقول لكم :

-وليكونن من الغفلة أن تصدقوا ما أقول-

ليس هناك رقيب لا تدركه سنة من النوم بين وقت وآخر" ¹

ومن يقارن بين هذه المقطوعة وما أورده ابن حزم في طوق الحمامة - الذي خصص بابا كاملا في الرقيب ² - يلمس هذا التشابه بوضوح. كما أن القصائد التي قيلت في الرقيب منذ الجاهلية ، أكثر من أن تعد وتحصى.

ولكن من المعارضين الذين شككوا في نظرية التأثير العربي ، فقد نفوا أن يكون شعراء تروبادور قد تأثروا في موضوعات شعرهم بالأدب العربي ، لأن طابع حب التروبادور كان عفيف ، بينما كان يتميز الغزل العربي بالمجون ، وان المرأة العربية كانت في عزلة على حد تعبير المستشرق ويلهلم شليجل : " لست افهم كيف يمكن لشعر مثل البروفاسي ، يقوم على التعبد بالمرأة وعلى الحرية المطلقة التي كانت تمارسها المرأة المتزوجة أن يكون متأثرا بشعراء كانوا نتاج مجتمع مغلق تعيش فيه النساء جواري حبيسات غرف الحرم " ³.

هذا التصريح يوحي لنا أن ويلهلم شليجل لا يعرف شيئا من التاريخ المجتمع العربي ولا الأوروبي ، خلال القرون الوسطى ، لأن الإسلام أعطى للمرأة حقوقها ، ورفع قدرها ، و ساواها مع الرجل ، في حين أن هذه المساواة كانت منعدمة في الغرب خلال القرون الوسطى .ولكن أثناء الوجود العربي الإسلامي في جنوب فرنسا ، " ارتفعت مكانة المرأة البروفانسية ، فأصبحت صورة صادقة للمرأة الأندلسية ، و المرأة الحجازية قبلها ، تشتغل بالفن و الأدب و أنواع الثقافة ، تفرض احترامها و تفوز بحريتها ، تجالس الشعراء و تقوم بدور الحكم بينهم ، تتعطر بعطور الشرق و تتزين بالصباغة لتدعم جمالها الفكري بجمالها الجسدي " ⁴.

¹ - سهر الفلماوي ، و محمود علي مكي ، أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر ، 1980 ، ص 63.

² - ينظر ، ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، ص 113.

³ - سهر الفلماوي ، و محمود علي مكي ، أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوروبية ، ص 62.

⁴ - عبد الإله ميسوم ، تأثير الموشحات في التروبادور ، ص 193.

وربما كان سبب هذا التصريح اطلاع هذا المستشرق- ويلهلم شليجل- على ديوان ابن قزمان، والتي كانت له شهرة كبيرة لدى الباحثين في أصول التروبادور، والحق أن هناك تشابها بين أزجال ابن قزمان وقصائد التروبادور من حيث الشكل، أما من حيث الموضوع، فهو بعيد في الكثير من النواحي من بينها المضمون، لأن ابن قزمان، كان صاحب نمر ولهو وعبث، فمن الطبيعي أن تكون أزجاله تعبر عنه، ولم يرد في شعره شيئا من العفة.

وقد ذكر جورج كولان في بعض أبحاثه " ما يستبعد تأثير ابن قزمان في شعر التروبادور لهذا السبب بالذات، ولكنه اعترف بالتأثير الأندلسي، وعزاه إلى غيره، كالأخطل بن نمارة، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم، وموشحات ابن زهر، وقصائد ابن زيدون"¹.

أما فيما يخص الوقائع التاريخية للأشخاص فهو: واضح، فقصائد التروبادور، تؤكد على أن أصحابها، قد كانت لهم احتكاكات بالحضارة العربية الإسلامية، وأن الكثير منهم، كانوا يجيدون اللغة العربية، فاقتبسوا بعض الأحداث التاريخية من الأدب العربي ووضعوها في أشعارهم.

ويظهر هذا التأثير مثلا في: ديوان بلاثيو نشره برييري barbieri، كلها تومى إلى أصلها الأندلسي ومنها أغنية المسلمات الثلاث:

Tres moricas me enamoran :

En jaen :

Axa y fatima y marièn

Tres moricas tan garridas,

Iban a cogar olivas ,

Y fallabanlas cogidas ..

En jaen :

Axa y fatima y marièn

ترجمتها:

ثلاث مسلمات عشقني

في جيان:

¹ - محمد رجب البيوني، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير، مكتبة الدار العربية للكتب، ط1، 2008، ص 122.

عائشة و فاطمة و مريم

ثلاث مسلمات رائعات الجمال

ذهبن لجمع الزيتون

فوجدنه مجموعا

في جيان:

عائشة و فاطمة و مريم¹.

فهذه المقطوعة تحمل بناء زجليا ، فضلا عن ذلك " اكتشف خوليان ريبيرا : أن الأغنية الشعبية لها أصل توثيقي برهاني في قصة تنسب إلى هارون الرشيد وردت في كثير من الكتب، كالعقد الفريد و كتاب الأغاني و ألف ليلة وليلة"²

ويضاف إلى هذا هناك من شعراء التروبادور ، من طعم أشعاره بألفاظ عربي كالشاعر خيوم التاسع ، أقدم شعراء التروبادور الفرنسيين ، "كان على اتصال وثيق بإسبانية المسيحية، فقد زار إسبانيا وساعد الفونسو المحارب ملك أراغون في معركة كنده عام 1120م ، و انه تزوج ابنته راميرو الراهب ملك أراغون وقتل في شنت ياقب 1137م"³، فكانت له صلة بالثقافة العربية، له قصيدة- " ملخصها يتحدث عن سيدتين قابلهما في بعض رحلاته - أورد فيها بيتين صعب فهمهما على النقاد ، وقد اهتدى إليها المستشرق بروفنسال ، وعرف أن مصدر الصعوبة ، هو عربية ألفاظهما"⁴.

وهذا يدل على علم هذا الشاعر بالعربية و أن السيدتين كانتا تعرفان العربية أيضا

هذه بعض مظاهر تأثير الزجل و الموشحات في شعراء التروبادور ، والتي أقر بها كل من ريبيرا

بالنثيا...

إلا أن هناك فريقا آخر ينكر هذا التأثير ، لمجرد كون شعر التروبادور ، ظهر في جنوب فرنسا قبل أن يظهر في إسبانية المسيحية ، و حاولوا إرجاع هذا الشعر إلى أصول لاتينية ، بالرغم من أنهم لم يقدموا دليل واحدا يؤكد مزاعمهم - من بينهم رينان و مارو - بل اكتفوا بتقديم بعض الفرضيات : " كان الأشكال العروضية

¹ - الطاهر احمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة ، دار المعارف ، ط3 ، سنة 1987 ، ص 197.

² - ماريا خيسوس رويبرامي ، الأدب الأندلسي ، ترجمة اشرف علي دعدور ، المجلس الأعلى للثقافة ، سنة 1999 ، ص 301.302.

³ - عبد العزيز سالم ، في تاريخ و حضارة الإسلام في الأندلس ، بيروت ، 1962 ، ص 309.

⁴ - ينظر رجب البيومي ، الأدب الأندلسي بين التأثير و التأثر ، ص 124.

لشعر التروبادور نجد نماذجها في أشعار لاتينية، تعرف باسم مخطوط سان مارتين، وهي أشعار ربما يرجع عهدها إلى سنة 862 ميلادي أو إلى منتصف القرن العاشر الميلادي بالضبط¹.

في حين أن هذا المخطوط بالتحديد، قد اطلع عليها الباحث العلامة ميسوم عبد الإله، فوجد أن الأشعار تختلف اختلافا كبيرا مع قصائد التروبادور، وأنها كتبت ما بين سنة 1096 و 1099 أي قبل ظهور أشعار أول تروبادوري بسنوات لا تتعدى أسابع اليد الواحدة، كما أن هذه الأشعار -سان مارتين- نجد أمثالها عند البابا سيلفستر الثاني وأمثلة من رجال الدين تتلمذوا على ثقافة العرب والإسلام بالأندلس².

من الواضح أن مسألة تأثير أصول اللاتينية لشعر التروبادور، قد أحدثت ارتباكاً، وفوضى لدى الباحثين الأوروبيين، مما جعلهم في حيرة من أمرهم، ولم يتفقوا على رأي معين، لأنهم لم يقدموا ولا دليل واحد، يؤكد صحة أقوالهم.

ومن هؤلاء الباحثين الناقد الفرنسي جان روا الذي يقول: "جاء الشعر البروفنسالي منذ نشأته بعيداً عن أي تأثير أجنبي، لقد انبثق فجأة، كالزهرة انشقت عنها الأرض بلا ساق ولا جذور"³.

يبدو أن الناقد الفرنسي جان روا، قد حاول أن يقطع كل صلة تمت إلى الأصل العربي للتروبادور، ولكن الحق قد أنصف الكثير من المؤرخين الأوروبيين العرب، و اعترفوا بجذور العربية لفن التروبادور.

ومن بينهم: المستشرق برغون رد قائلاً على بعض المستشرقين الذين أنكروا التأثير: "ولكن الأمر لم يعد اليوم كما كان بالأمس، فبينما لم يبق أي دليل على وجود نشاط أدبي في أوروبا المسيحية قبل القرن الثاني عشر، له صلة بفن التروبادور، تتوافر لدينا تفاصيل عن نشاط الشعر العاطفي الأندلسي الذي انتشر في أوروبا منذ القرن العاشر، وفي أيامنا الحاضرة على الخص ترايدت معرفتنا بذلك الأدب و تأثيره في البلاد المجاورة له إلى حد أنه لم يعد مسموحاً لنا أن نتحدى في التزام الصمت إزاء هذه الحقيقة دون أن نعترف بغفلتنا، ولابد أن يحين الوقت الذي نتخذ فيه موقفاً أقرب إلى الفهم الصحيح بدلاً من التمسك بآراء ظلت مدة طويلة شائعة بين الأكاديميين، أراء لا تعبر على أية حال إلا عن حالة خاصة من حالات انحراف قديم منبعث الأغلب من تصور تاريخ غير ملم بأي شيء عن الإسلام، يأنف من أن يعترف بأن المسيحية كانت بربرية"⁴.

فإذن إن شعراء التروبادور في القرون الوسطى، قد تأثروا بمصادر عربية أندلسية، ولا سيما الموشحات و الأزجال، وكان هذا التأثير في الشكل وفي المضمون، وهذا التأثير واضح لا مجال للشك في حقيقته.

¹ - عبد الإله ميسوم، تأثير الموشحات في التروبادور، ص 188.

² - ينظر عبد الإله ميسوم، تأثير الموشحات في التروبادور، ص 189، 190.

³ - الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة، دار المعارف، ط3، سنة 1987، ص 192.

⁴ - مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، دار المعارف، مصر، 1991، ص 121.